Route Educational & Social Science Journal
Volume 5(10) August 2018

Artical History
Received/ Geliş 30/6/2018 | Accepted/ Kabul 19/7/2018 | Available Online/yayınlanma 1/8/2018

العلمانية عند العرب بين الظاهرة والتطبيق في القرن العشرين

أ.م.د. عبدالرحمن إدريس صالح
كليّة التربيّة للعلوم الإنسانية/جامعة ديالى/ العراق

الملخص

العلمانية مصطلح كغيره من المصطلحات الحديثة نسبيًا ذات أصول غربية، ويعني الحكم المستند إلى الأنظمة والقوانين أخذ بالتطور عن طريق استعراضه لعددٍ من المفاهيم، حتّى أصبح مفهومًا شرقيًا متداولًا ركّز على العلميّة، وراح الفكر العلماني يتطور عن طريق توجهات وأفكار عدد من المتحررين والمفكرين، فضلًا عن دعوات متطورة أُخرى ساعدت على انتشار الأفكار الإصلاحية، وقادت إلى قيام الانتفاضات والثورات، بهدف التغيير والإصلاح، ليظهر مبدأ العلمانية بمنزلة القانون الذي دعا إلى الحرية، إلّا أنَّ ذلك لا يعني عدم وقوع تناقض لدى بعض العلمانيين بين المضمون والتطبيق لعددٍ من المبادئ، ولاسِيَّمَا الدساتير الإسلامية.

قللت النزعة المحافظة من اعتناء المسلمين في الفكر العلماني في الوقت الذي طرح موضوع العلمنة كوكبة من المفكرين العرب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكان هناك ممثلون مسيحيون ومسلمون رفدوا الفكر العلماني عن طريق ثقافتهم واحتكاكهم بالغرب في الوقت الذي أثرت تراكمات الماضي وتغلغل الاستعمار الغربي في البلدان العربيّة في المواطن العربيّ وجعلته (مصيبًا أو مخطئًا) يعدّ الغرب من بين أعدائه التقليديين.

كانت تجربة العلمانية في تركيا تجربة تاريخية مشبعة بالموروث العثماني، حتّى تأثرت بالمقومات والمبادئ الأوروبية الحديثة في الوقت الذي أصبح إبعاد الاتجاه الإسلامي عن الساحة السياسية صعبًا، ولاسِيَّمَا بعد أَنْ أمسى الإسلام قوة اجتماعية وسياسية ازداد نفوذه بالاعتناء الشعبي.

الكلمات المفتاحية: العلمانية، الظاهرة، التطبيق.

Secularism among Arabs between phenomenon and practice in the twentieth century

Assist. Prof. Abdul Rahman Idris Saleh (Ph.D.)

Abstract

Secularism among Arabs between phenomenon and practice in the twentieth century Secularism is a term, like other relatively modern terms of Western origin, and the rule based on laws and regulations has evolved through its review of a number of concepts. It has become an oriental concept that has focused on science, and secular thought has developed through the orientations and ideas of a number of liberators and thinkers. Other sophisticated calls helped spread the reform ideas and led to uprisings and revolutions, with the aim of change and reform, to show the principle of secularism as the law that called for freedom, but this does not mean that

there is no contradiction between some secularists To apply a number of principles, especially Islamic constitutions.

The conservatism reduced Muslims' attention to secular thought. At the time of the secularization of a group of Arab thinkers in the late 19th and early 20th centuries, Christian and Muslim representatives supplemented secular thought through their culture and contact with the West, while the accumulation of the past and the penetration of Western colonialism In the Arab countries in the Arab citizen and made him (right or wrong) the West among his traditional enemies.

The experience of secularism in Turkey was a historical experience imbued with Ottoman heritage. It was influenced by the modern European elements and principles. The Islamic trend was removed from the political arena, especially after Islam became a social and political force.

المقدمة

العلمانية مصطلح كغيره من المصطلحات الحديثة نسبيًا ذات أصول غربية، ويعني: الحكم المستند إلى التدابير النظامية والقانونية، أخذ بالتطور عن طريق استعراضه لعددٍ من المفاهيم حتّى أصبح مفهومًا شرقيًا متداولًا رَكّزَ على العلمية، وأخذ من العصرية والشمولية بعض المرتكزات، وراح الفكر العلماني يتطور عن طريق توجهات وأفكار عدد من المتحريين والمفكرين، فضلًا عن دعوات متطورة أُخرى ساعدت على انتشار الأفكار الإصلاحية، وقادت إلى قيام الانتفاضات والثورات، بهدف التغيير والإصلاح، فقيدت السلطات المركزية، وعدلت الدساتير التي دوّنت حقوق الإنسان، ليظهر مبدأ العلمانية بمنزلة القانون الذي دعا إلى الحرية، وحفظ الحقوق، إلّا أَنَّ ذلك لا يعني عدم وقوع تناقض لدى بعض العلمانيين بين المضمون والتطبيق لعددٍ من المبادئ، ولاسِيَّمَا في الدساتير الإسلامية، فنجد مثلًا ابتعادًا عن بعض المظاهر الدّينية في التجربة التركية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، وكان الفكر النظري هو الأساس في النّظرية الماركسية من دون المعتقدات الدّينية، متجاهلة حقيقة الإيمان الذي لازم ولا زال يلازم المؤمنين، في الوقت الذي لا يمكن تجاهل أَثر الدِّين في توجيه بعض الأحداث التي أثرت في حياة السكان سلبًا أو إيجابًا، الأمر الذي زاد مصطلح العلمانية تعقيدًا وسوء الفهم، وعلى أساس ذلك: فهل الدِّين من وجهة العلمانية وَهَم أَثر في عطاء الإنسان؟ وهل يمكن عن طريق العلمانية أَنْ نبتعد عن الدِّين؟ وهل أَنَّ العلمانية هي خطيئة أم أَنَّها ممارسة للابتعاد عن السلطات الدّينية والإسلام السياسي الذي جعل الدِّين غطاءً لممارسة السياسة النفعية، في الوقت الذي وجدت فيه عاملًا لإظهار كُلّ ما هو ومفيد، وإبعاد كُلّ ما هو مضر؟ وهل ظهرت بعض الشخصيات الإدارية العراقيّة التي آمنت بالعلمانية وراحت تنفذ القوانين بأسلوب حضاري شكّل العقل الأساس في أحاكمهم بعيدًا عن المتدينين الذين لا يردعون الفساد؟ وهل من حاجة أساسية لظاهرة العلمانية في العالم الإسلامي المعاصر؟ وإذا كانَ كذلك فهل يُعَدُّ الالتزام بها بمنزلة التطبيق للنهج الأوروبي في هذا المضمار على المجتمعات الإسلامية؟ كُلّ هذه الأسئلة وغيرها سنحاول الردّ عنها عن طريق بحثنا المتواضع هذا، في الوقت الذي نشير فيه إلى أَنَّ ما في هذا البحث من معلومات هي أفكار قابلة للحوار والتصويب.

تكمن أهمية البحث في التعريف بفلسفة العلمانية التي حققت تطورًا ملحوظًا من حيث المضمون والتطبيق، وذلك لتوجهها الدنيوي من دون إغفال دور الدِّين وقيمه الروحية والمعنوية، فضلًا عن التركيز على الوعي وإدراك قوة العقل والمنطق، والإيمان بالحياة المدنية، لتصب في خانة العلمانية، التي تعرضت لسوء فهم، نتيجة الأحداث التي أثرت في حياة السكان سلبًا أو إيجابًا.

هدف البحث:

الكشف عن جُملة من الحقائق فرضت نفسها في تاريخ العلمنة، فضلًا عن طرح بعض الاتجاهات لعددٍ من القيادات العربيّة (مسيحية أم مسلمة) كانت لها آراء جريئة وصفت بالعلمانية في الوقت الذي حُسِبَ البعض على العلمانية من دون أَنْ يكون علمانيًا في توجهاته الحقيقية، إذ إنَّ الإيمان بالدّين أو أي مبدأ معين ليس شرطًا ضروريًا أَنْ يُفرض على عموم المجتمع، كما يمكن أَنْ نشير إلى أَنَّنا استعملنا المنهج التاريخي التحليلي للتوصل إلى الهدف المنشود من هذا البحث الذي كشف جُملة من الحقائق التي فرضت نفسها في تاريخ العلمنة.

قسم البحث على ثلاث عنوانات رئيسة، تسبقها مقدمة وتتلوها خاتمة، تناول الأوّل: مصطلح العلمانية ومضمونه، فيما استعرض العنوان الثاني: المرتكزات الأساسية للعلمانية، وفي العنوان الثالث: تَمَّ تحديد عدد من الحقائق الرئيسة بشأن العلمانية من وجهة نظر الكاتب، ليتم عرض أهم الاستنتاجات في خاتمة البحث.

اعتمد البحث على مجموعة من المصادر والمراجع الأصيلة، وكانت تلك المصادر تعود لجهات متعددة ومختلفة في بعض التوجهات، كانَ من بينها: كتاب العرب والأتراك، لمؤلفه سيار الجميل، الذي أشار إلى انتشار العلمنة بين العرب والترك، فضلًا عن ممارسة العلمنة في المجتمع، وضم كتاب الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا بين دفتيه معلومات قيّمة عن تبلور مفهوم العلمانية وتطبيقاتها في المجتمعات غير العربيّة.

وعلى درجة من الأهمية نفسها تضمّن كتاب الفكر الإسلامي، لمؤلفه مُحَمَّد أركون معلومات واسعة عن الممارسة القديمة للعلمنة في المجتمعات الإسلامية، وإنْ لم تذكر التسمية بشكل مباشر مثلما ركّز على موقف الفلاسفة المسلمين من العلمانية، واحتل كتاب جذور الفكر الديمقراطي في العراق الحديث 1914-1939، لمؤلفه عامر حسن فياض، حيزًا مهمًا في البحث، كونه تضمّن معلومات تاريخية مهمة عن الديمقراطية ومرتكزاتها، فضلًا عن المقومات الاجتماعية للفكر الديمقراطي الليبرالي، فضلًا عن المصادر التي يمكن ملاحظتها في هوامش البحث ومصادره التي نتمنى أَنْ ينال رضا القارئ الكريم.

المصطلح والمضمون:

اشتق مصطلح العلمانية (Seulariste) من الكلمة اللاتينية (Seculam) التي دَلَّت على معنى (الزمني) تمييزًا لَهُ عن العالم الروحي أو الدّيني، وينتمي مصطلح العلمانية (Secularism) بنسبة غير قياسية إلى مصطلح المدنيّ (Secular) التي تعني اللاديني، ومنذ وقت غير قصير أصبح مصطلح العلمانية بمفهومه الحديث يسمى

بالانكليزية (Secular) وبالفرنسية (Laiciste)، وهاتين الكلمتين تدلان على العلم المخالف للكهنوتية (اللاهوتية)[1].

نجد مِمَّا تقدّم من التعريف بالمصطلح واشتقاقه أَنَّ مصطلح العلمانية يتوجه توجهًا دنيويًا لا دينيًا خالصًا، يتبناه قادة، وأحزاب، وجماعات، ونخب أعتقد مفكرو ومنظرو تلك الأحزاب والجماعات أَنَّهُ السبيل الأفضل والأنموذج للارتقاء بالمجتمعات والدول مدنيًا، ويجد الباحثون أَنَّ فلسفة العلمانية حققت تطورًا ملحوظًا من حيث المضمون والتطبيق بعد ممارسة تطبيقاتها في التاريخ الحديث والمعاصر لدى دول أوروبية وغير أوروبية[2]، حتّى أصبحت أسلوب عمل للإدارة على وفق الأنظمة والقوانين.

ويمكن القول: إنَّ مضامين مصطلح العلمانية[3] اكتسبت أبعادًا تاريخية، واجتماعية، وسياسية، محددة في حقبتين رئيستين، أولهما: القرنين السابع عشر والثامن عشر (1600-1700)، وما ميّز تلك الحقبة أَنَّها شهدت تطورًا واضحًا في تشكيل الأفكار، والمفاهيم، والقيم وبلورتها، وثانيهما: القرنين التاسع عشر والعشرين (1800-1900)، إذ شهدت تلك الحقبة انبثاق مجموعة من القوانين الحديثة، وتنظيمات سياسية واجتماعية حديثة التكوين قامت على أنقاض أنظمة تقليدية سياسيًا واجتماعيًا، ودول ذات أنماط سياسية وتنظيمات اجتماعية قديمة.

تجدر الإشارة إلى أَنَّ النظم السياسية والاجتماعية القديمة كانت تستند في هيكلتها إلى دمج السلطة السياسية والدّينية باتجاه واحد، حتّى بدت للباحث وكأَنَّها حالة واحدة، وعلى سبيل المثال أَنَّ النظم في أوروبا وفرنسا خصوصًا كانَ الحكم فيها يستند إلى نظرية (الحق الإلهي) وبعض النظم أو جميعها في المشرق كانت تستند إلى نظام الخلافة أو الإمامة، وهو نظام إسلامي قديم يجمع السلطة الدّينية والدنيوية لدى الحاكم أو الفئة الحاكمة[4]، إلَّا أَنَّ بعضهم وجد أَنَّ منابع العلمانية رويت عن طريق رجال الدِّين الإسلامي أنفسهم مثال على ذلك دور المعتزلة منذ القرن الثامن الميلادي الذين وجودوا بالقياس العقلي الأساس في الحكم على الأشياء[5]، ليأخذ ذلك التوجّه طريقه إلى بعض المفكرين والعلماء فيما بعد، وبمرور الوقت خلفت الأحداث السياسية في البلدان العربيّة (منذ العهد الأموي صعودًا) نوعًا من عدم الثقة بكل ما هو سياسي سعى ليتخذ الدِّين لمصلحته وأهدافه السياسية، وفعلًا ظهرت قيادات تختفت وراء الدِّين، في الوقت الذي ظهرت فيه قيادات دينية دعمت القيادات السياسية، وكانت مرشدةً لها أحيانًا، الأمر الذي زاد من حالة الانقسام في المجتمع، وراحت الأوضاع تشجع آنذاك القيادات السياسية للركون إلى القوى العسكرية، لتفرز

(1) العرب والأتراك – الانبعاث والتحديث من العثمنة إلى العلمنة، سيار الجميل، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط1، بيروت، 1997، ص296.

(2)الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا – حاضرها ومستقبلها دراسة حول الصراع بين الدِّين والدولة في تركيا، أحمد نوري النعيمي، دار البشير، عمّان، 1992، ص17.

(3) شغلت العلمانية الكثيرين، وكانت موضع اعتناء العلماء، والفلاسفة، ورجال الدِّين، حتّى أصبحت **"كلمة لها رائحة البارود"**. ينظر: العروبة والعلمانية، جوزيف مغيزل، دار النهار للنشر، بيروت، 1980، ص9.

(4) الفكر الإسلامي (قراءة علمية)، مُحَمَّد أركون، ترجمة: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1987، ص162.

(5)ثورة العشرين الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية، وميض جمال عمر نظمي، ط2، بيروت، 1985، ص75.

تلك الظروف حالة الاعتماد على القوى الخارجية، ونفوذها إلى أعماق المجتمع الإسلامي مستغلة الظروف بهدف السيطرة.

المرتكزات الأساسية للعلمانية:

شهد القرن العشرين تطورًا ملحوظًا لمفهوم العلمنة، وتبلورت معانيه ومضامينه من الناحيتين الإيديولوجية والتطبيقية، وأصبح هذا المفهوم عند بعض المفكرين والسياسيين في بعض الدول شرطًا ارتكازيًا في توجهاتهم وتوجهات دولهم، حتّى اعتقد أولئك أنَّهُ الضمانة الأكيدة لتقدم مجتمعاتهم ودولهم، ويمكن القول: أَنَّ المفهوم الحديث الذي استقر عليه هذا المصطلح في القرن العشرين بشكله العام أشار إلى فصل السياسة عن الدِّين(6)، وأَنَّ الغاية من ذلك الفصل هو لإشاعة الحياة المدنية في المجتمع والاتجاه إلى أبعد ما يكون لتلبية متطلبات المجتمع واحتياجاته المعاصرة، فضلًا عن الأخذ بالتطورات التي راحت تغزو الحياة العصرية(7)، حتّى أَنَّ ذلك المعنى (فصل السياسة عن الدِّين) قد تسللَ إلى المشرق الإسلامي عبر العلوم، والاقتصاد، والآداب، والتعليم اللاديني، فضلًا عن انتشار وسائل المواصلات وعدد من عناصر الحضارة الغربية(8).

يعتقد أنصار العلمانية أَنَّ فصل الدِّين عن الدولة لا يعني إغفال دور الدِّين وقيمه الروحية والمعنوية لدى أبناء المجتمع، بل إنَّ المجتمع يبقى بحاجة ماسة إلى القيم الروحية والأخلاقية، سواء في البناء الاجتماعي والعلاقات بين أبناءه، أو العلاقات بين الجماعات المختلفة، فضلًا عن أَنَّ المجتمع يبقى بحاجة إلى رفد القيم الدِّينية، للإسهام في بناء الأساليب التربوية والتوجهات الإصلاحية في المجالات كافة بما فيها الجانب الاقتصادي، ونجد أَنَّ أولئك الذين ينحون ذلك المنحى يجدون في علمانيتهم فكرًا لا يتعارض مع الدِّين طالما أَنَّهم أبقوا الدِّين والمؤسسة الدّينية مسارًا فلسفيًا وروحيًا يسهم في بناء المجتمع(9)، وهناك من أشار إلى أَنَّ مبدأ فصل الدِّين عن السياسة بمنزلة الفصل بين العلم وآلته العقل، والدّين وآلته القلب، وأَنَّ وظيفة كُلّ عضو تختلف عن الآخر، وعليه يجب أَنْ يعيشا سوية ويتعايشا من دون إقصاء لأي طرف منهما، وعلى ذلك فما الداعي للفصل بين وظيفتين أو سلطتين تكملان بعضهما للآخر، فالدِّين يدعو للعبادة والفضيلة طبقًا لكتب منزلة، والسلطة الزمنية تسعى لصيانة الحرية للمواطنين في حدود الدستور، مثلما الطرفين يدعوان إلى المساواة في الوقت الذي يحتم عدم تدخل السلطة الدّينية بالأمور الدنيوية، وذلك كون أَنَّ مبادئ الأديان خصت الآخرة وليس لكسب الدُّنيا(10).

(6) العلمانية من منظور مختلف، مركز الدراسات الوحدة العربيّة، عزيز العظمة، بيروت، 1987، ص44. إنَّ الدِّين ظاهرة اجتماعية لا يخلو منها مجتمع سواء أكان متقدّمًا أو متخلفًا، وتعني لفظة الدِّين: الطاعة والخضوع لله، فضلًا عن محاسبة النفس لما تقدمه من أفعال، وللدِّين أهمية في تماسك المجتمع، وتغير بعض الظواهر، كما يوفر الراحة النفسية والضبط الاجتماعي. المجتمع الريفي، سالم خلف عبد، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1992، ص226.

(7) جذور الفكر الديمقراطي في العراق الحديث 1914-1939، عامر حسن فياض، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2002، ص164-166.

(8) المصدر نفسه، ص164.

(9)"الإسلام والعلمنة"، مُحَمَّد أركون، "دراسات عربية" (مجلة)، بيروت، العدد5، آذار 1986، ص23.

(10) الديمقراطية بين العلمانية والإسلام، عبدالرزاق عيد ومُحَمَّد عبدالجبار، ط1، دار الفكر، دمشق، 2000، ص59.

ويشير بعض المهتمين بإيديولوجية العلمنة إلى أنَّ مبادئ العلمانية تؤكد ترسيخ الوعي، وإدراك قوة العقل والمنطق، والإيمان بالحياة المدنية ومتطلباتها، وأهمية الإيمان بحقوق الإنسان وأنَّ الفكر العلماني يؤمن إيمانًا مطلقًا بضرورة وصوله إلى أصل التكوينات، والبنى، والأجهزة في مرافق الدولة، كما يؤمن العلمانيون بضرورة إبعاد المجتمع عن كُلّ الرموز الخيالية والتأثيرات الطوباوية المسيطرة على الإنسان والمكبلة لعقلهِ وحرياته[11]، ومن المفيد أنْ نشير إلى أنَّ العلمنة تبدأ بمرافق التربيّة والتعليم وصولًا إلى أعلى المؤسسات القيادية، والتشريعية، والتنفيذية، والقضائية، أي إنَّها تجد شموليتها عن طريق هيمنتها على مؤسسات المجتمع والدولة كافة، ومن بين أهداف العلمانيين الرئيسة امتصاص العواطف الاجتماعية الجمعية المتراكمة، واستئصال العادات، والتقاليد، والقوانين القديمة، وتخليص الذاكرة التاريخية من الأوهام والأساطير (الدِّينية)، وبقايا التشكيلات والرموز التي استمرت تؤثر في حياة الإنسان المعاصر.

كما تتوضح أهمية طريق الوطنية المعبد بالعلم والتحديث في زمن استحالت فيه قيام الوحدة الدِّينية، وأنَّ المساواة ترسخ بغض النظر عن مذاهب المجتمع ومعتقداته، وإذا ما عرفنا أنَّ العلمانية هي من الثوابت للممارسة الديمقراطية فإنَّنا نقر بتراجع العلمانية في عالمنا العربيّ، وانتعاش الحركات الإسلامية المسيسة للدِّين، وقد يرجع ذلك إلى نقص الوعي، وفشل الأنظمة العلمانية الموجودة في بعض البلدان العربيّة في إقامة ديمقراطية، فضلًا عن بروز سلطة الفرد الحاكم (الدكتاتور)، وهنا يمكن أنْ نشير إلى ظهور دول علمانية من دون أنْ تكون ديمقراطية والعكس صحيح أيضًا إذا ما علمنا بوجود أنظمة علمانية لم تحقق الديمقراطية بشكلٍ مُرضٍ[12].

حقائق بشأن العلمانية:

لابدّ من القول إنَّ المتابعة النقدية والتحليلية لتاريخ العلمنة في نشأتها وتطورها في المجتمعات الأوروبية بشكل خاص تكشف لنا عن تباين وتفاوت في تفكير عدد كبير من الفلاسفة، والمفكرين، ورواد الفكر السياسي الحديث، هذا فضلًا عن الخلافات الفكرية التي نكتشفها في كتابات علماء التاريخ في هذا الصدد، وعلى الرغم من أنَّنا لسنا من المتضلعين في هذا المضمار من الفكر السياسي الحديث، إلَّا أنَّنا نود الإشارة إلى جُملة من الحقائق التي لابدّ أنْ تفرض نفسها في هذا الإطار وهي:

1. تبقى العلمانية محاولة بناءة في سبيل إنشاء مجتمعات ودول قادرة على التأقلم مع التطورات الجديدة التي تتلاحق في عالمنا المعاصر على جميع الأصعدة، وفي شَتّى المجالات، وهي كأغلب التيارات السياسية الحديثة تتعرض للإخفاقات في جانب، وفي جانب آخر تحقق النجاحات.
2. من أبرز المشكلات التي تواجهها العلمانية في عالمنا المعاصر هي المواجهة المحتدمة بين أنصارها وأنصار المؤسسة الدّينية، والسبب في احتدام ذلك الصراع وديمومته مبني على أساس عقائدي راسخ، فما تعدّه العلمانية أساطيرًا

(11) تاريخ العرب، المصدر السابق، ص298.

(12) الديمقراطية بين العلمانية والإسلام، المصدر السابق، ص234.

تثقل كاهل العقل البشري المعاصر يعدّهُ الدِّينيون حقيقة راسخة مبنية على أسس تاريخية وأحداث واقعة[13]، وعلى سبيل المثال محاولة الإصلاحيين من أنصار مارتن لوثر وكالفن للبحث عن أصول الكتاب المقدس واجهة إصرارًا على تلك الأصول، فضلًا عن البحث عن المدن التاريخية التي انطلق منها إبراهيم كأور وبابل وغيرها من مدن العالم القديم، وبذلك فإنَّ ذلك التواصل التاريخي بين ما حدث قبل آلاف السنين وعالم اليوم يرافقه تلازمًا روحيًا وإيمانًا مطلقًا بديمومة التواصل الروحي المؤثر بالحياة الاجتماعية، والسياسية، والدّينية، والأمثلة مشابهة في التاريخ الإسلامي ولا داعي لذكرها.

3. لماذا حققت العلمانية انتصارًا في أوروبا أكثر مِمَّا حققتهُ في مناطق أُخرى من العالم؟ وللإجابة عن هذا السؤال المهم يجب علينا أَنْ نفهم أَنَّ التطورات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية في أوروبا ودخول المسيحية إلى أرجائها عن طريق الآباء الروحيين في حقبة مبكرة من تاريخ تطورها السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي أفضى إلى حالة من الاندماج بين المؤسستين السياسية والدّينية، فمثلا الجانبان قد يمثلان حالة تجمع بين العقل والسيطرة إذا صح التعبير، فالكنيسة كانت عادة ما تصدر فتاواها في أحقية الحرب وقدسيتها خدمة لمصالح الحاكم، أو الإقطاعي، أو غيرهم من المتنفذين، كما أَنَّ الكنيسة كانت تتلقى المكافآت على تلك الخدمات الجليلة التي تقدمها لأُولي الأمر هناك، حتّى أَنَّ الكنائس في أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت تمتلك آلاف الهكتارات من الإقطاعيات، ومزارع الفواكه، والقمح، والشعير، في الوقت الذي كانَ المواطن يرزح تحت ظلم كبير من القوتين المتلازمتين على طول الخط، بل إنَّ في فرنسا كانَ حكم آل بوربون يسير تحت نظرية (الحكم الإلهي المقدس) وهي قريبة من فكرة (الملك – الرب)، وفي ظل تلك الظروف يمكن للعلمانية أَنْ تجد لها من المناصرين الكثير ومن المنظرين الذين يدعون لها العدد غير القليل، كانَ ذلك الأمر في أوروبا، أَمّا في الشرق فالأمر اختلف جوهريًا لعدّة أسباب ابزرها أَنَّ المؤسسة الدّينية وإنْ اندمجت بالمؤسسة السياسية في كثير من أرجاء المعمورة، إلَّا أَنَّها لم تصل إلى مرحلة الطغيان التي وصلت إليها المؤسسة الدّينية في الغرب، بل إنَّ المؤسسة الدّينية في الشرق كانت تحظى باحترام العامة من النَّاس، بسبب اضطلاع أقطاب بارزين من تلك المؤسسة بمهمة النضال الوطني ضد هجرة المستعمرين وتطلعاتهم خلال مُدّة الحروب الصليبية وما تلاها من مواجهات مع المحتل الأوروبي في مصر إبان الاحتلال النابليوني، وفي الخليج ضد هجمات الفرنسيين، والهولنديين، والبريطانيين فيما بعد، فضلًا عن ظهور عدد من المفكرين البارزين في عصر النهضة العربيّة انتموا إلى المؤسسة الدّينية أمثال: مُحَمَّد عبدة، وعبدالرحمن الكواكبي، ورفاعة الطهطاوي، وغيرهم[14]، مثلما ظهرت قيادات كانَ لها الدور الفاعل في إشعال فتيل ثورات وانتفاضات مؤثرة، كالتي حدثت في العراق عام 1920 التي اشترك فيها قيادات دينية، أمثال: مُحَمَّد كاظم اليزدي، ومُحَمَّد تقي الحائري المعروف بالشيرازي، ومهدي الخالصي، ومُحَمَّد الصدر، فضلًا عن مُحَمَّد سعيد

(13) العلمانية من منظور مختلف، المصدر السابق، ص45-50.

(14) للمزيد ينظر: الفكر السياسي في المشرق العربيّ، عبدالزهرة مكطوق الجوراني، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001، ص89-95.

الحبوبي، وغيرهم[15]، وتزعم في أواخر النصف الأوّل من القرن العشرين المجاهد عمر المختار المقاومة الليبية ضد الاحتلال الايطالي. وعودة إلى العراق إذ بدأت خلال تلك الحقبة أفكار الزهاوي والرصافي قريبة من العلمانية القومية، حتّى أَنَّ الزهاوي أشار إلى أَنَّ جميع العراق سواء أكانوا مسلمين، أم مسيحيين، أو يهود يؤلفون أمة واحدة، وعارضَ القومية السلفية التي تعيش على أمجاد الماضي[16].

4. فضلًا عن كُلّ ما تقدّم لابدّ من الإشارة إلى أَنَّ المجتمع الغربي تعرض إلى العديد من المتغيرات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية أدت إلى حدوث قفزات مهمة في حياة المواطن في ذلك المجتمع، وهي متغيرات لا تبدو قليلة الأهمية في حياة المواطن العادي، منها تطورات فكرية، وبروز عددٍ من التيارات الاشتراكية، وبعض التيارات الإلحادية، ومفكرين أكدوا في أدبياتهم ضرورة العدالة الاجتماعية، مثل: روبرت أوين، فضلًا عن نشاط الحركة الاشتراكية العمالية، وتكوين مجالسها، فضلًا عن أثر الثورة الصناعية في انكلترا، وألمانيا، وغيرها من دول الغرب الأوروبي، أَحدث كُلّ ذلك تأثيرًا واضحًا في مسار الحركة الفكرية في تلك الأصقاع، وجاءت الحربين العالميتين الأولى والثانية لتزيد من توجه المجتمع توجهًا علمانيًا أدى إلى إضعاف دور الكنيسة في أوروبا، وتوجه السكان نحو الجمعيات الإنسانية والإقليمية، فضلًا عن النقابات، والأحزاب، وغيرها من التنظيمات التي سعت لتحقيق طموحاتهم على صعيد الواقع الذي عاشوه.

5. إذا ما تحدثنا عن الإنسان بذاته فإنَّ دواخله كثيرًا ما توجد فيها توجسات هائلة تحثه نحو الخوف من قوى أَشد منهُ وأكثر تأثيرًا في نفسه من خشية انتقام غير معروفة الزمان والمكان، بسبب مخالفته لما تعلمهُ في صغرهِ، أو ما أخبرتهُ به الكتب القديمة المقدسة بشتى انتماءاتها، واعتقد أَنَّ مشكلة العلمانية هي مشكلة الماركسية نفسها، حينما حاول معتنقيها بناء مجتمع يبتعد كثيرًا عن الدِّين، حتّى أَنَّ لينين قال: **"الدِّين أفيون الشعوب"**، ولنكن واقعيون حينما نقول إنَّ القوة التي تمنع المسيحيين من ممارسة طقوسهم اللاتينية رغم هشاشتها لم تخلق بعد، وأَنَّ زيارة الأضرحة المقدسة في العراق أمر لا يمكن مناقشته حتّى ولو من بعيد.

6. أمر مهم آخر لابدّ من ملاحظته في موضوع العلمانية في الشرق على الأقل، هو أَنَّ جميع الأنظمة في منطقة الشرق الأوسط والأدنى اتجهت اتجاهًا علمانيًا خلال العقدين السادس والسابع من القرن العشرين، إلَّا أَنَّ المفاجأة التي واجهت الجميع تكوين دولة إسلامية في إيران عام 1979، وتلاها هيمنة قوة إسلامية في عقد التسعينيات على أفغانستان (حركة طالبان) التي احتوت تنظيم إسلامي متطرف هو تنظيم القاعدة، واليوم نلاحظ الأثر الدّيني في حياة النَّاس واضحا بإتباعهم المراجع الدّينية.

(15) الثورة العراقيّة الكبرى، عبدالرزاق الحسني، ط6، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1992، ص102-110. وللمزيد من التفاصيل ينظر: ندىم عيسى، الفكر السياسي لثورة العشرين، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1992، ص50-55.

(16) الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربيّة (الاستقلالية) في العراق، وميض جمال عمر نظمي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1984، ص59.

وعلى ذلك الأساس وضمن إطار تلك الحقائق التي أوردناها في معرض حديثنا عن العلمانية بوصفها مفهومًا عامًا فإنَّ العرب المسلمين واجهوا العديد من الاضطرابات والتعقيدات حين قرر مفكريهم وسياسييهم الخوض في غمار تلك التجربة التي تُعدُّ رائدة في مجتمع العرب المسلمين في قرنهم الميلادي العشرين، في الوقت الذي كانت ظاهرة واضحة في أوروبا بعد أَنْ خاضها الأوروبيون منذ القرن السادس عشر الميلادي، وأدى ذلك الأمر إلى عدم توازن واضح وتعقيد سياسي وإيديولوجي حين برزت ظاهرة العلمنة في الدساتير العربيّة الإسلامية وتطبيقات بعض القوانين.

يشير بعضهم إلى أَنَّ العلمانية لم تزل اصطلاحًا غامضًا بالنسبة للغرب والمسلمين بشكل عام، ولم تتكشف فلسفته بشكل واضح، فضلًا عن أَنَّ مغازيه لم تتحقق لحد الآن، مِمَّا اكسبه معنى دَلَّ في بعض جوانبه على أَنَّهُ تقويض لدعائم الدِّين، ولاسِيَّمَا بعد أَنْ قام النظام الكمالي بفصل الدِّين عن الدولة عام 1924، الذي عرف بـ (علمنة الإسلام)، الأمر الذي عرض مقترحات العلمنة للإصلاح وللرفض أحيانًا، الأمر الذي جعل نزعة العلمانية أَنْ تتخذ أشكالًا بعضها لا علاقة لها بالإسلام والبعض الآخر انسجمت من حيث المبدأ، إلَّا أَنَّها لم تعالج نصوصه، فضلًا عن إجراءات يمكن لها أَنْ تكون بديلة لبعض جوانب الإسلام وتفصل الدِّين عن الدولة[17].

ومن المفيد أَنْ نشير إلى أَنَّ تلك التجربة حققت العديد من النجاحات في بلدان غير عربية، مثل تركيا على سبيل المثال، وتفسير ذلك أَنَّ واقع التجربة التركية كانَ قريبًا من التجربة الأوروبية إلى حَدّ قريب جدًا، فضلًا عن ضلوع أتاتورك بتجربة (تطبيقية – نظرية) بعد الحرب العالمية الأولى[18]، وعلى ذلك الأساس فإنَّ الظروف التاريخية والموضوعية أنضجت تلك التجربة بكل أبعادها في مجتمع إسلامي غير عربي، على الرغم من أَنَّ الفكر العربيّ كانَ أغنى في ميراثه الفكري بذلك الاتجاه، إذ تقدّم أنصار العلمانية منهم: فرح أنطوان بمؤلفه (العلمانية الليبرالية)، وشاهين مكاريوس (العلمانية الماسونية)، وأديب اسحق (العلمانية السياسية)، وشبلي شميل (العلمانية الداروينية)، وغيرهم من الرعيل الأوّل لأنصار ذلك التيار[19]، أَمّا الرعيل الثاني الذي تبلور فكره العلماني في مُدّة ما بين الحربين (1918–1939) فتمثل بطروحات طه حسين بمؤلفه (العلمانية العقلانية)، وأمين الريحاني (العلمانية الغربية)، وسلامة موسى (العلمانية الاشتراكية)، وساطع الحصري[20] (العلمانية القومية)[21].

(17) ينظر: الاتجاهات السياسية في العالم العربيّ، مجيد خدوري، الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1972، ص222.

(18)الحياة السياسية في تركيا الحديثة 1919–1938، أحمد نوري النعيمي، بغداد، 1990، ص76.

(19) ينظر: الفكر السياسي في المشرق العربيّ، المصدر السابق، ص97–118.

(20) ساطع الحصري من مواليد عام 1880، درس في الأستانة وتخرج في عام 1900، وعين مدرسًا للعلوم الطبيعية، ألف مجموعة من الكتب المدرسية جرى اعتماد بعضها من وزارة المعارف العثمانية، أصدر مجلة التدريسات الابتدائية في استانبول، ذهب إلى القاهرة مقيمًا، وهناك انصرف إلى التأليف حتّى استدعاه الملك فيصل الأوّل إلى العراق عام 1921 بصفة مستشارًا للشؤون التربيّة والتعليم، ثمَّ عُيّنَ معاونًا لوزير المعارف (1922–1923)، ثمَّ أصبح مديرًا للمعارف (1923–1927). ينظر: الفكر التربوي عند ساطع الحصري (تحليلية وتقويمية)، بهاء صبيح سعد، البصرة، 1979.

(21) سيار الجميل، المصدر السابق، ص599.

كانت تجربة ذلك الجيل من المفكرين المشار إليهم في أعلاه غير ناجعة في استجذاب رؤى إيجابية عن العلمانية في قطاعات كبرى من الجماهير التواقة لحالة التغيير المطلوب على الرغم من أنَّ الواقع آنذاك بمضامينهِ التاريخية، والموضوعية، والسياسية كانت تستدعي ذلك الانجذاب الجماهيري لمفهوم جديد مستحدث في السياسة العربيّة.

وعلى أساس ذلك الإخفاق الذي لاقاه ذلك الجيل من العلمانيين بسبب طروحاتهم النّظرية غير التطبيقية، ظهر جيل آخر حاول التوفيق بين نظرته العلمانية وواقعه العربيّ الإسلامي، وكانت مهمة ذلك الجيل من المفكرين والمثقفين العرب التوفيق بين العلمنة سياسيًا والإسلام اجتماعيًا، وقد أثبت ذلك الجيل وجوده على الساحة السياسية بعد المتغيرات السياسية التي طرأت بعد الحرب العالمية الثّانية، ومن أبرز التوفيقيين الذين تزعموا ذلك التيار والذين اتجهوا توجهًا اشتراكيًا كانَ بعضهم من طلاب الجامعة الأمريكية[22] في بيروت، وانتهى الأمر بهم إلى تشكيل حركة اشتراكية انضم إليها العديد من المؤيدين لتلك الحركة لتفضي فيما بعد إلى تكوين أحزاب اشتراكية راح منظروها وعن طريق أدبيات أفكارهم[23] يعالجوا مسألة الأقليات، والعلمانية، والإسلام، إلَّا أنَّهم لم يكونوا واضحين في كتاباتهم وتطبيقاتهم مثلما لم يكونوا واضحين في معالجة مشكلة العلمانية، بل إنَّهم فشلوا في ذلك الأمر على الأقل في العراق، ولاسِيَّمَا في الجوانب الاقتصادية، إذ كانَ استعمالهم لنظام الخصخصة من الناحية الاقتصادية من دون المستوى المطلوب، وكان تعاملهم مع الطوائف والأقليات الدّينية والقومية مخالفًا لما يقتضيه الحال والظرف، أمّا تجربة ذلك التيار في سورية فلسنا على إطلاع بها، إلَّا أنَّها من حيث الواقع لا تشير إلى نجاح واضح في نهايتها.

برز من الداعين إلى مبدأ العلمانية في العراق الملكي السيد مُحَمَّد فاضل الجمالي[24] الذي حمل أفكارًا علمانيةً ليبراليةً بعد أنْ درس في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان الجمالي أوّل طالب بعثة عراقي يتخرج في الجامعة الأمريكية في لبنان، لترسله وزارة المعارف للدراسة على نفقتها في جامعة كولومبيا التي عاد منها عام 1932 بعد أنْ حصل على شهادة الدكتوراه في التربيّة من كليّة المعلمين. وفي هذا الصدد يمكن أنْ نشير إلى أنَّ الوسط الثقافي في العراق لم يكن مهيئًا للاستماع لآراء الجمالي التربوية[25] بقدر ما كانَ جديرًا بأنْ يستمع لطروحاته السياسية وحلوله الناجعة على

(22) للمزيد ينظر: الجامعة الأمريكية في بيروت وأثر خريجيها العراقيين على الفكر السياسي في العراق الملكي، منار عبدالمجيد عبدالكريم، مؤسسة ثائر العصامي، بغداد، 2014، ص107-136.

(23) ظهرت مؤلفات منها: الإيديولوجية العربيّة الثورية لإلياس فرح.

(24) مُحَمَّد عبّاس الجمالي: من مواليد عام 1903، أكمل دراسته الابتدائية، ودخل دار المعلمين، ثمَّ سافرَ في بعثة دراسية لإكمال دراسته في جامعة بيروت الأمريكية، ثمَّ في جامعة كولومبيا بنيويورك، بعد أنْ حصل على شهادة الدكتوراه في التربيّة والتعليم عام 1932، عُيّنَ مرشدًا عامًا للتعليم العراقيّ، وفي أيلول 1935 عُيّنَ مفتشًا عامًا في وزارة المعارف، شغل منصب وزير الخارجية العراقيّة لثمان مرات، مثلما شغل منصب رئيس الوزراء لمرتين، كانَ لَهُ مواقف مهمة في قضايا المغرب العربيّ في المحافل الدولي، ولاسِيَّمَا الجزائر، وكان من أبرز الداعين لاستقلال تلك البلدان، حتّى أنَّ الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة حين علم بوجوده في سويسرا للعلاج عام 1962 أرسل إليه ودعاه للإقامة في تونس، فاستجاب الجمالي لتلك الدعوة، فعاش في تونس، وقد سمي أحد الشوارع فيها باسمه، توفي في 24 آيار 1997. مُحَمَّد فاضل الجمالي – دوره السياسي ونهجهُ التربوي حتّى العام 1958، رحيم كاظم مُحَمَّد الهاشمي، أطروحة دكتوراه، كليّة الآداب – جامعة البصرة، 1997، ص311.

(25) آمن الجمالي ببعض آراء ساطع الحصري الموظف القادم من حلب والذي عُيّنَ مديرًا عامًا لوزارة المعارف تمكن من وضع أسس النظام التربوي نخبوي شديد المركزية استنادًا على تفسير علماني للقومية العربيّة، إلَّا أنَّ الجمالي اختلف عن الحصري في دعوته إلى نظام تربوي أقل مركزية مع مراعاة

الصعيد السياسي، وأمر آخر لابدّ من الإشارة إليه أَنَّ مُدّة رئاسته للوزارة كانت قصيرة قياسًا إلى طموحاته، وواجهت إحدى وزاراته تهديدًا تمثل بفيضان عام 1954[26]، أمّا لماذا لم يتمكن الجمالي من إشغال منصب وزير المعارف فإنَّ ذلك المنصب كانَ حكرًا على خليل كنه[27]، أحد مقربي رئيس الوزراء السيد نوري السعيد (رحمهُ الله)، وَكانَ العديد من رجال البلاط والبرلمانيين والوزراء يحبذون بقاء (كنه) في ذلك المنصب، بسبب صلابته في مواجهة الإضرابات الطلابية التي كانت تعج بها الثانويات والجامعات العراقيّة آنذاك، فضلًا عن علاقته القوية بالمدرسين وأساتذة الجامعات، كُلّ تلك المواقف والمداخلات قد أبعدت الجمالي عن أَنْ يؤدي دورًا تربويًا واضحًا على صعيد العراق والصعيد الإقليمي بشكل عام.

ومن الجدير بالذكر أَنَّ المحكمة العسكرية العليا الخاصة[28] وجهت العديد من التهم للجمالي، كانَ من بينها التدخل في الشؤون السورية والتآمر عليها، ودفع سياسة البلد إلى وجهة تخالف المصلحة الوطنية، فضلًا عن تحريض الدول الأجنبية على التعرض لبعض الدولة العربيّة والتدخل بشؤونها، وتبذير الثروة القومية[29].

أَمّا السيد عبدالرحمن البزاز[30] فبحسب اعتقادنا المتواضع أَنَّهُ لم يكن علمانيًا بمعنى الكلمة، وإِنَّما كانَ مجرد معارضًا للنظام الملكي وعلاقته ببريطانيا، وأَنَّهُ يمكن أَنْ يكون بحسب الاصطلاح الثوري (تقدميًا)، وَكانَ اعتقاله ونفيه إلى السليمانية ثمَّ كركوك ليستقر فيما بعد بمدينة تكريت[31] ليس لأسباب فكرية بقدر ما كانت لأسباب تحريضية على الإضراب الطلابي، وعدم الالتزام بأوامر الحكومة.

وحين نناقش دور الزعيم عبدالناصر في موضوع العلمانية فإِنَّنا لا نجد مبررًا لاعتقادنا بعلمانيته، فبعدالناصر رجل عسكري فرض نفسه على السلطة بعد إبعاد زميله مُحَمَّد نجيب، وحاول تكوين حزب سياسي بعد إحساسه بخطورة الأحزاب السياسية، ولاسِيَّمَا القومية منها آنذاك، فكوّنَ ما يسمى بـ (الاتحاد الاشتراكي) الذي كانت أهدافه قريبة جدًا من تيار القوميين العلمانيين مع اختلافات هامشية، إذ كانَ القوميون يرفعون شعرا (الوحدة – الحرية –

توزيع الموارد على نحوٍ متساوٍ بين المناطق العراقيّة. ينظر: صفحات من تاريخ العراق، تشارلز تريب، ط1، ترجمة: زينة جابر إدريس، الدار العربيّة للعلوم، بيروت، 2006، ص144.

(26) سعيد قزاز ودوره في سياسة العراق حتّى 1959، عبدالرحمن إدريس صالح، ط2، مؤسسة ژين للطباعة والنشر، السليمانية، 2009، ص99.

(27) للمزيد من التفاصيل عن خليل كنه ينظر: خليل كنه ودوره السياسي في العراق حتّى عام 1959، عارف شاكر محمود الأحبابي، رسالة ماجستير، معهد التاريخ العربيّ والتراث العلميّ للدراسات العليا، بغداد، 2000.

(28) للمزيد من التفاصيل ينظر: محكمة المهداوي أغرب المحاكمات السياسية في تاريخ العراق الحديث، مُحَمَّد مهدي الجعفري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990؛ عبدالرحمن إدريس، المصدر السابق، ص181.

(29) للمزيد من التفاصيل ينظر: مُحَمَّد فاضل الجمالي ودوره السياسي..، المصدر السابق، ص330-340. أشار الجمالي في أثناء محاكمته في 25 أيلول 1958 إلى دوره في وزارة المعارف ونشاطه الدبلوماسي، ودفاعه عن القضايا العربيّة، والنهج الغربي للحكومة الملكية في العراق حتّى عدّهُ توجهًا مناوئًا للعالم الشيوعي. ينظر: المحكمة العسكرية العليا الخاصة (محكمة الشعب)، وزارة الدفاع، ج3، مطبعة الحكومة، بغداد، 1960، ص1086-1123.

(30) هو عبدالرحمن عبداللطيف حسن حمادي المعاضيدي، الأكاديمي، والسياسي، والمحامي القومي المعروف، من مواليد بغداد عام 1913، أصبح رئيسًا للوزراء في أيلول 1965 حتّى آب 1966،توفي في 28 حزيران 1973. ينظر: عبدالرحمن البزاز ودوره الفكري والسياسي في العراق حتّى ثورة 17 تموز 1968، مُحَمَّد كريم مهدي المشهداني، مكتبة اليقظة العربيّة للطباعة والنشر، بغداد، 2002.

(31) المصدر نفسه، ص74.

الاشتراكية)، في حين كانَ الاتحاديون الاشتراكيون يرفعون شعار (الحرية – الاشتراكية – الوحدة) إلَّا أنَّ عبدالناصر لم يكن متجهًا نحو العلمانية بشكل حقيقي بدليل مجابهتهُ للأحزاب الإسلامية وبشكل خاص لإخوان المسلمين والجماعات الأزهرية المطالبة بالحرية في التعبير عن أفكارها، فضلًا عن دعمه للتيار السياسي والعسكري المناهض لحكم عبدالكريم قاسم في العراق، وهو أمر يخل بالتوجه التوفيقي المبدئي، ويبدو عن طريق متابعتنا لسياسة عبدالناصر أنَّهُ توجه توجهًا علمانيًا سياسيًا لأغراض تكتيكية يتماشى مع توجهات الاتحاد السوفيتي (الشيوعية) لغرض كسب المزيد من التأييد لمواجهة الكيان الصهيوني التي كانَ عبدالناصر في أقصى درجات المواجهة معه.

فيما يخص الماركسيين العرب وموقفهم من العلمانية فإنَّ هذا الموضوع مليء بالحديث والمواقف المختلفة وأحيانًا المتناقضة، وكانت بعض المبادئ لهم تتناقض مع المواقف العربيّة تجاه (إسرائيل)، إلَّا أنَّ الثابت أنَّهم كانوا يناصرون العلمانية ليست كهدف وإنَّما وسيلة للوصول إلى الأهداف الاشتراكية أو الشيوعية، فضلًا عن أنَّ ارتباطاتهم الفكرية بالمنطلقات النّظرية أدت إلى وقوعهم تحت ضغط مواقف فكرية جاهزة، الأمر الذي جعلهم تحت وطأة ما يسمى بالغباء السياسي أو الذيلية إنْ صح التعبير.

وأخيرًا فالعلمانية اليوم لم تُعدّ حدثًا طارئًا في الإيديولوجيات العربيّة على اختلاف اتجاهاتها ومدارسها الفكرية، وعلى الرغم من المجابهة التي تواجهها من بعض التيارات، إلَّا أنَّ البعض يطمح لتطبيقها تحت مسميات جديدة، للدلالة على قيم كانت موجودة أساسًا في الفكر العربيّ الإسلامي عبر تاريخه الطويل، وعليه فهي ليست بعيدة المنال من تحقيقها اليوم، حتّى تَمَّ استيعاب فلسفة العلمنة.

الاستنتاجات

قد لا يعني مصطلح Secularism (لا ديني) المعنى الدقيق للعلمانية في الوقت الذي يمكن أنْ يكون التحرر من القيود والسعي للسير في الاتجاه العلميّ المستند إلى النظريات والعلوم بهدف الإصلاح هو الأقرب إلى العلمانية على أساس أنَّها بالضد من سيطرة رجال الدِّين المتزمتين، فضلًا عن استنادها إلى العقل لمراعاة المصالح الوطنية، بمعنى أنَّ العلمانية هي الأقرب إلى التخطيط والمنطق العلميّ الذي يقره العقل البشري الناضج، بعيدًا عن الانتماءات القومية والدّينية، وإنَّما (العلمانية) تفصل بين السلطات السياسية والسلطات الدّينية، في الوقت الذي تعتني بالدّين لما فيه من قيم وأحكام مقدسة.

1. لا ينكر من وجود بعض المبادئ الخاطئة التي حملها بعض مؤيدي الفكر العلماني، وأنَّ هناك متاجرة بالشعارات والأهداف لبعض المتطرفين، إلَّا أنَّنا يمكن أنْ نوظف بعض الاتجاهات العلمانية لخدمة عِدَّة جوانب في الحياة من دون أنْ تعترض مبادئنا الأساسيّة للطعن أو نبتعد عن الدِّين والمقدسات، مثلما نؤكد أنَّ الدِّين ليس السبب في تأخرنا بوصفنا عربًا، لأنَّ الأغلب ليس ملتزمًا دينيًا، وأنَّ هناك عِدَّة أمور أثرت في الأنموذج الإسلامي الصحيح، منها: التطرف والأفكار المتناقضة لبعض الجماعات الإسلامية، فضلًا عن حملات التشويه لبعض الإسلاميين الملتزمين، التي روجها الإعلام الأجنبي وبعض الأنظمة عربية كانت أم أجنبية.
2. قللت النزعة المحافظة من اعتناء المسلمين في الفكر العلماني في الوقت الذي طرح موضوع العلمنة كوكبة من المفكرين العرب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حتّى كانَ للعمانية في بعض البلدان العربيّة،

ولاسِيَّمَا مصر ممثلون مسيحيون ومسلمون رفدوا ذلك الجانب عن طريق ثقافتهم واحتكاكهم بالغرب في الوقت الذي أثرت تراكمات الماضي وتغلغل الاستعمار الغربي في البلدان العربيّة في المواطن العربيّ (المسلم)، والتي جعلته (مصيبًا أو مخطئًا) يعد الغرب من بين أعدائه التقليديين، حتّى راح بعضهم يفسر كُلّ عمل أو دعوه، أو اتجاه فكري يصدر عن الغرب بمنزلة اعتداء على دينهم أو معتقداتهم وثقافتهم، الأمر الذي وضع العلمانية، وإنْ أيدتها بعض القيادات السياسية العربيّة في خانة الشك والاتهام أحيانًا، الأمر الذي أعاق انتشارها بين الأوساط الإسلامية.

3. برزت قيادات عربية أسهمت في تنمية حركة الوعي القومي وإحيائها (مسيحيون ومسلمون)، وكانت لهم آراء جريئة يمكن أَنْ توصف بالعلمانية، مثلما ظهرت كوكبة من العلمانيين العرب الذي تخرجوا في الجامعات الأوروبية والأمريكية بعد أَنْ تعرّفوا على مبادئ حرية الرأي والديمقراطية، فضلًا عن التكنولوجيا ونظام الإدارة، ليقارنوها بما موجود في البلدان العربيّة من استبداد، وتخلف، وتسلط، الأمر الذي فسّرَ لهم أسباب تقدّم الغرب بالاعتماد على مبادئ العلمانية والأسباب التي أدت إلى تخلف العرب والتي أسندوها إلى الالتزام بالمبادئ القديمة.

التوصيات

1. يمكن الإفادة من التجربة العلمانية في تركيا، كونها تجربة تاريخية مشبعة بالموروث العثماني القديم، وعدت تلك التجربة في مقدمة التجارب الآسيوية التي تأثرت بالمقومات والمبادئ الأوروبية الحديثة، وبمرور الزمن ازداد تعلق تركيا بالغرب، بهدف الانضمام لعضوية الجماعة الأوروبية، والمشاركة في السوق الأوروبية المشتركة، والتي لم تتحقق لحد الآن.
2. إنَّ عمليات إبعاد الاتجاه الإسلامي عن الساحة السياسية قد لا تجدي نفعًا بعد أَنْ أصبح الإسلام قوة اجتماعية وسياسية اكتسب وجوده من الالتزام والاعتناء الشعبي اللذين قادا إلى النفوذ الواسع، حتّى أصبح من المتعذر التغاضي عنه أو إهماله بأي شكل من الأشكال، الأمر الذي راح البعض يستغل ذلك للتأثير بشرائح واسعة من المجتمع.
3. ضرورة عدّ التفكير العقلي من أهم داعمي العلمانية، مثلما يمكن تحديد الزمن ومتغيرات الأحداث، زيادة على العلم وعمل الإنسان من عناصر البناء الاجتماعي، التي تؤثر في العلمانية.

وختامًا نرجو أَنْ نكون قد وفقنا في بحثنا المتواضع هذا.

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنين.

المصادر

- الاتجاهات السياسية في العالم العربيّ، مجيد خدوري، الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1972.

- "الإسلام والعلمنة"، مُحَمَّد أركون، "دراسات عربية" (مجلة)، بيروت، العدد5، آذار 1986.
- الثورة العراقيّة الكبرى، عبدالرزاق الحسني، ط6، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1992.
- الجامعة الأمريكية في بيروت وأثر خريجيها العراقيين على الفكر السياسي في العراق الملكي، منار عبدالمجيد عبدالكريم، مؤسسة ثائر العصامي، بغداد، 2014.
- الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربيّة (الاستقلالية) في العراق، وميض جمال عمر نظمي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1984.
- جذور الفكر الديمقراطي في العراق الحديث 1914-1939، عامر حسن فياض، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2002.
- الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا – حاضرها ومستقبلها دراسة حول الصراع بين الدِّين والدولة في تركيا، أحمد نوري النعيمي، دار البشير، عمّان، 1992.
- الحياة السياسية في تركيا الحديثة 1919-1938، أحمد نوري النعيمي، بغداد، 1990.
- خليل كنه ودوره السياسي في العراق حتّى عام 1959، عارف شاكر محمود الأحبابي، رسالة ماجستير، معهد التاريخ العربيّ والتراث العلميّ للدراسات العليا، بغداد، 2000.
- الديمقراطية بين العلمانية والإسلام، عيد عبدالرزاق ومُحَمَّد عبدالجبار، ط1، دار الفكر، دمشق، 2000.
- سعيد قزاز ودوره في سياسة العراق حتّى 1959، عبدالرحمن إدريس صالح، ط2، مؤسسة ژين للطباعة والنشر، السليمانية، 2009.
- صفحات من تاريخ العراق، تشارلز تريب، ط1، ترجمة: زينة جابر إدريس، الدار العربيّة للعلوم، بيروت، 2006.
- عبدالرحمن البزاز ودوره الفكري والسياسي في العراق حتّى ثورة 17 تموز 1968، مُحَمَّد كريم مهدي المشهداني، مكتبة اليقظة العربيّة للطباعة والنشر، بغداد، 2002.
- العرب والأتراك – الانبعاث والتحديث من العثمنة إلى العلمنة، سيار الجميل، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط1، بيروت، 1997.
- العروبة والعلمانية، جوزيف مغيزل، دار النهار للنشر، بيروت، 1980.
- عمر ثورة العشرين الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية، وميض جمال نظمي، ط2، بيروت، 1985.
- الفكر الإسلامي (قراءة علمية)، مُحَمَّد أركون، ترجمة: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1987.
- الفكر التربوي عند ساطع الحصري (تحليلية وتقويمية)، بهاء صبيح سعد، البصرة، 1979.
- الفكر السياسي في المشرق العربيّ، عبدالزهرة مكطوف الجوراني، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001.
- الفكر السياسي لثورة العشرين، نديم عيسى، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1992.
- المجتمع الريفي، سالم خلف عبد، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1992.
- المحكمة العسكرية العليا الخاصة (محكمة الشعب)، وزارة الدفاع، ج3، مطبعة الحكومة، بغداد، 1960.
- محكمة المهداوي أغرب المحاكمات السياسية في تاريخ العراق الحديث، مُحَمَّد مهدي الجعفري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990؛ عبدالرحمن إدريس، المصدر السابق.
- مُحَمَّد فاضل الجمالي – دوره السياسي ونهجهُ التربوي حتّى العام 1958، رحيم كاظم مُحَمَّد الهاشمي، أطروحة دكتوراه، كليّة الآداب – جامعة البصرة، 1997.